القامة تتقد في عينيه نظرة ثاقبة، تنظر لأعلى وبعيدا؛ يسهل معرفة ذلك من الصور ومن وقائع التاريخ، ولكني وأنا أنظر في حال الرجلين بعد مائة وخمسين عاما من رحيلهما مهزومين منفيين، أولهما منفي في جزيرة نائية، والثاني منفي في شيخوخة لا ينفذ من عتمتها شيء مما يدور حوله، أرجّح أن ابن إبراهيم أغا المولود في قَوكَة عام ١٧٦٩ كان ينظر إلى الكورسيكي الذي يماثله سنا ويفوقه إنجازا بعين الرضى والإعجاب، يغبطه، وربما فكر الألباني أن نجما واحدا أشرف على ولادتهما فرفع كل منهما إلى منزلة الحاكم في بلد لا ينطق بلسان أهله، وأيدهما في التوسع في محيط هذا البلد.

الخيوط تفلت من يدي، أردت الحديث عن المهاجرين اليهود فاستدرجتني مقارنة لست مؤهلا لعقدها، أسقطتني في التبسيط المخل، وربما في الخطأ. كل ما أردته هو الإشارة إلى أن ابن إبراهيم أغا الذي جاء من قَوكَة لمحاربة جنود فرنسا حلم بثورة تجعل من مصر دولة حديثة كفرنسا فعين ضابطا فرنسيا ليبني له جيشه، وأرسل النابغين من شباب البلد إلى فرنسا لينقلوا علومها وينوروا البلد بعقولهم بعد أن تنورت في المدينة المنوّرة، باريس، وفتح الباب «للمتنورين» الأجانب، لم يفتحه كاملا ولا كثيرا، بل ترك لأحفاده أن يتموا المهمة. صار الباب كبيرا يفوّت، لا جملا كما يقول المثل الشعبي، ولا قافلة من الجمال، بل جيوشا من العسكر والمستثمرين والمديرين والجوارح، معهم جاءت أعداد غفيرة من يهود أوروبا.

عندما قرأت كلام النيوزيلندي عن العلم الذي حمله إلى القدس ورفعه على سورها في ديسمبر عام ١٩١٧ تعجبت، وبدا لي أن مورينو شيكوريل وصاحبه السكندري كانا حالة خاصة تواجدت في مصر بمحض الصدفة. ولكني الآن أعرف أن شيكوريل لا يزيد شيئا عن الآلاف من المهاجرين اليهود في مصر ذلك الزمان إلا في فطنة جعلته يوصي صديقه الترزي على تلك القماشة ليعطيها إلى جندي قد يحالفه الحظ ويصل القدس. وربما لم تكن